

نصوص مختارة للشيخ يوسف الأسير

(وفقًا للتسلسل الزمني)

[التمهيد لكتاب شرح راض الفرائض]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للملهم الصواب. ومسَهّل الأمور الصّعب. ومعلّم من شاء فرائض الكتاب. والمجازي على عمل الخير بالثواب. والصلاة والسلام على من وردت الشريعة على لسانه. وأورد أصحابه إياها وأزواهم بحسن بيانه. وهم رووها لمن تلاهم من الأئمة. وهم دونوها وحرّروها في الكتب للأئمة. رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأوردنا معهم حوض نعمته المعين. أما بعد فإنّ علم الفرائض من أجلّ العلوم وأوسعها. وأجلها صناعة وأروعها بضاعة وأنفعها. لاسيّما أنّ الشارع قد حثّ تعلّمه وتعليمه. بقوله صلوات الله تعالى عليه مع تسليمه. تعلّموا الفرائض وعلموها الناس. وكان تعليمه صلى الله تعالى عليه وسلّم لهذا العلم أقوى أساس. فلذلك أجهدتُ نفسي برهة في تعلّمه. وأعملتُ فكري مدّة في تنشّمه وتوسّمه. حتّى فهمت بعونه تعالى رموزه. وفتحتُ بحوّله تعالى كنوزه. فالتقطتُ فرائد الدرر والغرر ونظمتُها في سلك رَجَزٍ لثُحْفَظ. فإنّ هذا العلم سريع النسيان إذا لم يُراجَع حينًا بعد حين ويُلاحظ. فجاءتُ بحمدته تعالى متينًا. وعقدًا بلا تعقيد جيدًا مفصّلًا ثمينًا. يعجب الفارض بيانه. ويغني عن وصف عونه عيانه. يقول الناظر فيه بعين فكره. صدّقني ناظم هذا الكتاب سنُّ بكره. والشّهد لا يحتاج إلى شهادة. وإتّما التحدّث بنعم الله تعالى عبادة. وقد سمّيته راض الفرائض. لأنّه لصعب هذا الفنّ كالفرائض. مسَهّل حُرُوقها ومذلل حُرُوقها. ولما برّز في حلبة هذا الميدان. وبرز لطالبيه في حُلّة البيان. طلبوا مِنّي شرحًا يقرّر مبانيه. ويحرّر بديع رقائقها ويبيّن معانيه. ويلدّن عريكة دقائقها. فشرّحته بما جعل المسائل كسلاسل الأنهار. والأبيات واضحة بالشبائيك والجداول كضحى النهار. وقد سَطَحَ صرّح الحساب. وفتح بحسب الطاقة مُغلق الأبواب. فبرغت شموسه بلا سحاب حاجب. وبرزت عروسه من الحجاب بلا ضنّ بحاجب. صحيحة النسب. صريحة الحسب. والله تعالى يدفع عنه كيد الحاسدين. وينفع به المستفيد منه حتّى يوم الدين. لاسيّما من أعاني على طبعه. وكان سببًا مُوصلاً لعموم نفعه. وقد افتتّحه باسم الله الكريم. لتعود بركته على مُطالعه بقلب سليم. فقلّتُ

باسم الإله الوارث الذي قسم مُحاسب الخلق له الحمد الأتمّ.

"باسم" متعلّق بأبدأ أو أنظم أو أوّلّف، و"الإله" المعبود فهو فعال بمعنى مفعول كالكتاب بمعنى المكتوب، و"الوارث" من الأسماء الحسنی الواردة في القرآن الكريم ومعناه الباقي بعد فناء مخلوقاته، وحذف مفعول "قسم" اقتصارًا أو اختصارًا لقصده العموم لأنّه تعالى قاسم الأرزاق والأعمار وغير ذلك، والقسمة التجزئة والتفرقة، و"مُحاسب الخلق" أي مُظهر أعمال العباد يوم الحشر والنشر والمعاد

ويستر كثيرًا ويعفو عن كثير فله الحمد على عدله وعلى فضله، و"الحمد" الثناء بالجميل على الجميل الاختياري بقصد التعظيم، و"الأمّ" أن يكون بأحسن صيغة على أسلم إخلاص، وجملة "له الحمد" إستثنائية كجملة أبدأ باسم الإله ويجوز أن تكون إحداها علّة للأخرى. ولا يخفى ما في هذا المطلع من البراعة لإشعار ما ذُكِرَ فيه بالمقصود من هذا الكتاب وهو فنّ الفرائض لأنّه متضمّن الإرث والقسمة والحساب المذكورة فيما [في ما] يأتي من الأبواب والله تعالى أعلم بالصواب ثمّ قلّث

تمّ الصلاة والسلام أبدأ
لأحمد المختار أصلاً للهدى
ولأصوله الكرام الأتقيا
وللفروع والحواشي الأتقيا

أي بعد ابتدائي باسمه تعالى وحدي لذاته العلي، يُهدى الدعاء والتحيّة مَنّي دائماً لأحمد، أو الرحمة والأمان كائنان من الله تعالى دائماً. "الأحمد" أعني نبينا المنتقى من العباد منشأً للرشاد عليه الصلاة والسلام إلى يوم المعاد. والمراد ب"أصوله" آباؤه وأمهاته، فإنّ من آبائه أنبياء ومؤمنين، ومن أمهاته مؤمنات باتّفاق. والكريمُ ضدّ اللئيم وضدّ البخيل، و"الأتقيا" جمع نقيّ أي مُنتخب، وبفروعه ذرّيته، وبحواشيه فروع آبائه وأمهاته المؤمنون، و"الأتقيا" جمع نقيّ وهو من يحدّر الله تعالى في عمل ما أمر به، ويجتنب ما نهاه عنه. وفيما [وفي ما] ذُكِرَ براعةً استهلالاً أيضاً لأنّ النسب من موضوع هذا الفنّ، وهو ينقسم إلى أصل وفرع، وحاشية قريبة وحاشية بعيدة، وجمع الحاشية باعتبار أنّ البعيدة تشتمل على عدّة حواشي، فإنّ كلّ أصل تُسمّى فروع حاشية، وفروع جدك الأدنى حاشية، وفروع من فويقه حاشية، وهلمّ جرّاء؛ وإنّ أطلاق على الكلّ حاشية بعيدة على أنّ الجمع يُطلق على ما زاد عن الواحد خصوصاً في هذا الفنّ. وحذف الهمزة من أنقيا وأنقيا جازر للوقف فلا ضرورة في ذلك، فإنّي بحمده تعالى قد احتببناها، والله تعالى الموفّق. ثمّ قلّث:

وبعد فالعبدُ الفقيرُ يوسفُ
يقول ذي أُرْجُوْزَةٍ بما أصطْفِي
مَنْ بِالْأَسِيرِ الْأَزْهَرِيِّ يُوصَفُ
مِنْ مَذْهَبِ النُّعْمَانِ فِي الْإِرْثِ تَفِي

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: أقول ذي أُرْجُوْزَةٍ، فالتفتُ أي عدلْتُ عن التكلّم للغيبة لمزيد التواضع. و"العبد" و"الفقير" صفتان مشبّهتان، ومعنى الأوّل الخاضع المطيع، ومعنى الثاني المحتاج، و"يوسف" اسم عبريّ معناه الفضل أي الزيادة، وهو في الأصل علمٌ للكريم ابن الكريم ابن الكريم العزيز ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام. و"الأسير" الأخذ فهو فعيل بمعنى مفعول، وإنّما لُقِبْتُ بذلك لأنّ الإفرنج أسروا جدّي أيام حرب مالطة من سفينة، وقد أقام بها برهة ثمّ عاد لبلده صيدا طليقاً، وأخبر عمّا رآه من أهلها. و"الأزهرّي" نسبة للأزهر، وهو الجامع الذي بناه جوهرُ، قائد الملك المعزّ، حين افتتح مصر، لا زال عامراً ومعموراً بالعلماء الذين يضاهاون كواكب السماء؛ وإنّما نُسِبْتُ إليه لأنني اقتبستُ من نوره حين جاوَزْتُ فيه أمّ بدوره، رضي الله تعالى عنهم، وجاورني بهم في جنة النعيم مع النبيّين والشهداء والصالحين بفضل العميم. وقولي "ذي" إشارة المنظومة الآتية. و"أُرْجُوْزَةٍ" أفعولة. قال في القاموس الرّجَز ضرب أي نوع من الشعر وزنه مستغلن ستّ مرّات، سُمّي بذلك لتقارب أجزائه وقلة حروفه. وقال الخليل إنّه ليس بشعر، وإنّما هو أنصاف أبيات وأثلاث، والأرْجُوْزَةُ كالقصيدة منه. وارتجَز الرَّعْدُ صات، والسحابُ تحرّك بطيئاً. وقولي

"بما أَصْطَفِي" الخ أي هذه أُرْجوزة وافية بالمسائل المختارة من مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان في فنّ الميراث. والمراد بمذهبه ما استقرّ عليه رأيه أو رأي أصحابه من المسائل حيث إنهم لم يخرجوا عن أصوله التي أسّسها، وقواعده التي قرّرها، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين. وإنما اخترت ذلك لأنّ عليه العمل في أعصارنا وأمصارنا. ثمّ بيّنتُ العلة الغائيّة لهذا النظم، فقلّت:

نَظْمُهَا تَذَكُّرٌ لِنَفْسِي مُرْتَجِي النِّفْعِ بِهَا لِنَفْسِي

النَّظْمُ فِي الْأَصْلِ ضَمُّ اللَّالِيءِ وَنُحُوهَا فِي السَّلْكِ، ضِدُّ النَّشْرِ. ثُمَّ صَارَ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً فِي ضَمِّ الْكَلِمَاتِ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ. وَال "تَذَكُّرٌ" مَا تُسْتَدَكَّرُ بِهِ الْحَاجَةُ، أَيْ مُذَكَّرَةٌ، وَتُطَلَّقُ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ فَهِيَ حَالٌ أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ. وَالْمُرَادُ بـ "نَفْسِي" مَنْ هُوَ رَاغِبٌ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثْلِي، سَمِعَ اللَّهُ دَعَائِي، وَحَقَّقَ بِفَضْلِهِ رَجَائِي، آمِينَ.

الشيخ يوسف الأسير،

"تمهيد" في شرح رائف الفرائض، بعدا، المطبعة العثمانية، ١٣١٨ هـ، ٢٨٧ صفحة، ص ٢-٥.

###

إرشاد الوَري في تخطيط جوف الفَرا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مُلْهِمٌ مِنْ شَاءِ طَرِيقِ الصَّوَابِ، وَمُؤَيِّدٌ الْحِكْمَةَ مِنْ أَرَادَ وَفَصَلَ الْخُطَابَ. وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَوْضَحُوا سَبِيلَ الْحَقِّ فَاقْتَدَى بِهِ وَاهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ خِيَارَ الْخَلْقِ. أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَدْ اطَّلَعْتُ عَلَى كِتَابِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ الْمَسْمُومِ بِنَارِ الْقَرِي فِي جَوْفِ الْفَرَا، فَأَرَدْتُ بَيَانِ مَبَانِيهِ، وَإِبْضَاحِ مَعَانِيهِ كَمَا تَرَى، فَشَرَحْتُهُمَا شَرْحًا يُجَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، حَيْثُ قَرَنْتُ كَلَامَهُ بِكَلَامِ الْإِثْمَةِ لِيُظْهِرَ الْحَالِي مِنَ الْعَاطِلِ. وَمَا قَصَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا الثَّوَابَ بِإِرْشَادِ مَطَالَعِيهِ إِلَى سَبِيلِ الصَّوَابِ. وَسَمَّيْتُهُ (إِرْشَادَ الْوَرَى لِنَارِ الْقَرِي) وَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرِي. وَهِيَ أَنَا ذَا أَقُولُ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ وَهُوَ خَيْرٌ مَسْئُولٌ. قَالَ الْمَوْلَفُ (بِسْمِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ) أَقُولُ أَرَادَ أَنْ يُخَالِفَ لِئُعْرَفَ وَلَكِنْ لَمْ يَأْتِ بِمَا يَنَابِسُ الْمَقَامَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْعِظَامِ، فَإِنَّ مَقَامَ التَّأْلِيفِ يَنَابِسُهُ الْاسْتِعَانَةُ وَالْإِسْتِرْشَادُ وَنُحُوهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ يَا قَهَّارَ ارْحَمْنِي. فَإِنَّ كَانَ مَقْصِدُهُ أَنْ كِتَابَهُ مُشْتَمَلٌ عَلَى شَيْءٍ عَالٍ عَظِيمٍ، فَأَقُولُ إِنَّكَ سَتَرَى أَنَّهُ مِنْ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ وَسَقَطِ الْمَتَاعِ. فَكَانَ الصَّوَابُ، لَوْ عَرَفْتَهُ، أَنْ لَا يَأْتِيَ بِالْبِسْمَلَةِ فِي أَوَّلِهِ، لِأَنَّهَا لَا تَجُوزُ عَلَى الْأُمُورِ الْخَسِيسَةِ. وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَقَامٍ لَهُ كَلَامٌ، فَيَنْبَغِي لِلْمَوْلَفِ أَنْ يَرِنَ كَلَامَهُ قَبْلَ وَضْعِهِ فِي الْكِتَابِ، وَإِبْرَازَهُ لِدَوِي الْأَبَابِ [...].

ثمّ قال (أما بعد فهذا شرح سمّيته نار القري على الأرجوزة التي سمّيته جوف الفَرا يتكفل بإيضاح معانيها على غير إسهاب، وتوسيع مبانيتها في أكثر الابواب). أقول ليس بين جوف الفَرا ونار القري ائتلاف في اللفظ، ولا في المعنى. أما في اللفظ فلأنّ نار القري إنّما

تُوضَع على مكان عالٍ ليراهما الضيف فيقصدتها، لا على جوف حمار الوحش. وأما في المعنى فلأنّ نار القِرَى إذا وُضِعَتْ على جوف القَرَا أو فيه، كما قال في ظهر الصفحة الأولى، يكون لذلك رائحة كريهة، ولا يُشوى ذلك الحمار جيّداً لأنّ الحمار يُوضَع على النار ليُشوى كما هو المعروف والمألوف لا العكس. وقوله (يتكثّل بإيضاح معانيها) المتبادر منه أنّه إخبارٌ بكفالتة فيما [في ما] يأتي وقد كان الأوّل له أن يقول تكثّل. وقوله (وتوسيع مبانيه في أكثر الأبواب) لا يخفى أنّ جوف القَرَا أَرْجُوْرَةٌ نَظْمٌ، ومبانيها ألفاظها، ولا يمكن توسيع ألفاظها لأنّه لا يَسْعُها بِحُرِّ النَّظْمِ حينئذٍ، ولعلّ الحامل له على ذلك أنّه رأى عبارة الصّبّان على ألفيّة ابن مالك وهي قوله: "وصرفتُ في تحرير مبانيها وتهذيب معانيها جميع الهمة"، فغيّر العبارة فأفسد المعنى. وقوله (في أكثر الأبواب) إنّ رجوعاً إلى إيضاح معانيه وتوسيع مبانيه ممّا يكن مفهومه أنّه في الكثير من الأبواب لم يوضح ولم يوسّع فبقيت على عماها وضيقها. وإن رجع الى توسيع مبانيها يَكُنّ البعضُ مُوسِعاً والبعضُ مُضَيِّقاً. وإن رجع إلى غير إسهاب كان الأمر كذلك. وأيّاً كان فهو خبط عشواء، لأنّ الشروح إنّما تكون على نسق واحد، وإنّما الحامل له على ذلك صفّ الألفاظ بدون تعقّل كما قيل فقلّ أنا ورّان وما أنا شاعر. وهل من يتكلّم في صدر كتابه بكلام مثل هذا يكون مؤلّفاً لاسيّما أنّ صدر الكتاب مناط الأنظار حيث إنّ الإنسان أوّل نظره يكون لصدر الكتاب، كما قيل: الكتاب يُعرّفُ بعنوانه، ولكن نقت الضفادع وسكتت البلابل السواجع. فوأسفاه على العلم وأهله. فقد غلبهم الجاهل بجهله وقد هشّم ابن هشام. وعقل ابن عقيل في بلاد الشام حين ظهر جوف القَرَا. وفاحت منه روائح بلا مرا. والأمر لمن له الأمر.

فما كان أخرى جوف القَرَا بالوضع على الجمر. فإنّ رَفَعَ قدر الخسيس أضّر شيء بالنفيس. وقد مالت النفوس لسوداء العروس. وسترى ما أوضّحُ لك في أثناء هذا الكتاب بعونه تعالى لترى مصداق ما قلته، وتعلم أنّ هذا المؤلّف قد ألّف مقولاً وعدم معقولاً. ثمّ قال (وأنّ ألتمس من أرباب الصناعة أن يصفحوا عمّا يرون فيهما من الزلل ويصلحوا ما يعثرون عليه من الخلل). لا يخفى أنّه لا يحسُن أن تكون السجعة الثانية أقصر من قريبتها الأولى، وهنا السجعة الأولى مثلاً الثانية كما ترى. ولا يخفى أيضاً أنّه في قوله (وأنا ألتمس) تأكيد معنويّ بتكرير الإسناد وقد أجبنا التماسه بالنظر إلى السجعة الثانية وهو إصلاح الخلل ولكنّه أتعنا كثيراً حيث وجدنا أكثرها زيفاً وخللاً كما سيأتي بيانه. وقد أخطأ في هذا التعبير من وجوه. (أحدها) أنّ الالتماس إنّما يكون من شخصٍ لمثله.

وإذا كان من يُصلّح كتابه مثله فلا يزيده إلاّ فساداً. ولو قال أستدعي بدل ألتمس لأصاب. (الثاني) أنّ تعبيره بالصناعة لا يليق في مثل هذا المقام لأنّها عبارة عن العمل، وهي حرفة الصانع وعمله. الصناعة والحرفة ما يرتزق منها الانسان، وكلّ ما اشتغل به الإنسان وضرى عليه يُسمّى صنعة وحرفة، لأنّه يتحرّف إليها، وصناعة النحو عبارة عن تعاطي الإعراب لا إدراك القواعد والأصول التي يقتدر بها الإنسان على الإصلاح كما هو واضح. (الثالث) أنّه قال أن يصفحوا ويصلحوا، وفي قوله هذا تناقضٌ لأنّ الصّح عن الشيء هو الإعراض عنه، وإصلاحه يقتضي الإقبال عليه وفسر في القاموس صفتح بأعْرَضَ وَتَرَكَ. ثمّ قال (والله الموقّق إلى الصواب في كلّ قول وعمل). فقوله "في كلّ قول" إنّما حمّله عليه السجع وهو فاسد، لأنّ الله تعالى لم يوفّقه إلى الصواب في كلّ أقواله وأعماله.

وإن أراد: في كلّ قول البشر وأعمالهم، فهو أيضًا خطأ لأنّ الله تعالى لم يوفّق كلّ أحدٍ إلى الصواب في كلّ قول وعمل. ولو قال: أسأل الله أن يوفّقني إلى الصواب في قولي وعملي، لما أخذَ عليه، وإنّما جاء بما بطريق الإخبار. فإن قيل إنّه أراد الإنشاء والدعاء في هذه العبارة نقول إنّه المتبادر من كلامه الآتي أنّه إنّما قصد الإخبار.

الشيخ يوسف الأسير،

إرشاد الورى في تخطئة جوف القراء، الإرشاد للأستاذ العلامة النحرير الشيخ يوسف الأسير والجوف لناصيف اليازجي، الأستانة العليّة، مطبعة الجوائب، ١٢٩٠ هـ، ص ٢-٥.

###

[ترنيمه "وصايا الله العشر"]

ومن الترانيم النفيسة التي نظمها للمرسلين الأميركيين ترنيمه تتضمن "وصايا الله العشر" وهي:

لا تسجدنّ للصنم	غيري إله لا يكن
ولا تُهنّهُ بالقسم	لا تأخذِ اسمي باطلاً
لوالديك المكرّمة	والسبت فاحفظْ واصنعن
في عملٍ أو كلمه	والقتل فاحذرْ والحني
تكذب وقلّ قول التقى	لا تحتلسن شيئاً ولا
ما للقريب مطلقاً	ولا تكن مشتهياً
وصية الفادي الحبيب	وكلّ هذي جمعت
وأحبب كنفسك القريب	أحبب بجهد ربنا

الشيخ يوسف الأسير،

نقلًا عن تاريخ الصحافة العربيّة لفيليب دي طرازي، الجزء ١، بيروت، المطبعة الأدبيّة، ١٩١٣، ص ١٣٨

###